

التحريم بالرضاع في ايران في الفقه والممارسة

جين خطيب - شاهدي

ترجمة:
أبو بكر باقادر

يعرف الفقه الإسلامي ثلاثة أنواع من القرابة: قرابة الدم، والمصاهرة، وقرابة الرضاع. ويشار للأخير بالرضاعة في العربية، وشيري أو رضاعي في الفارسية ويضاف لمصطلح للقرابة مناسب. وتؤدي الأنواع الثلاثة من القرابة إلى منع الزواج بين أشخاص معينين يرتبطون ببعضهم بواسطتها. ويمتد التحريم في حالة قرابة الرضاعة، بشكل عام، لكن ضمن الذين يكونون داخل درجات التحريم من الزواج إذا كان فعل الرضاعة قد حدث من طرف المرأة التي كانت تُرضع طفلاً آخر (الأم بالرضاعة) وزوجها (الأب بالرضاعة و«مالك» الحليب) (ويلسون، 1921: 57). وعلاقة الرضاعة، مع ذلك، هي شكل محدد لقرابة معتبرة قانونياً على أن قرابة الرضاعة لا تورث، وليس لوالدين من الرضاعة واجب قانوني للنفقة على أطفالهم بالرضاعة، وكذلك ليس لهم حق الولاية عليهم. أيضاً فإنه في حالة سرقة طفل الرضاعة من والديه بالرضاعة، فإنه يعد سرقة ويستدعي العقاب المعتاد (هاملتون 1971: المجلد الثاني: 99).

وتحدث علاقة الرضاعة عن طريق إرضاع امرأة ما طفل أخرى بالثدي. ولا يهم كم من الأعوام ستمضي على الطفل ليصبح من الأقارب. وهكذا فإن هذه العلاقة تختلف بشكل أساسي عن مؤسسة «الربيب» التي تولد روابط قرابة كما أوردها عديد من كتاب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، رغم حقيقة

أنه غالباً ما يشار إليه بوصفه شكلاً من قرابة الريبب fosterage وتصفى باعتبارها مثالاً لنفس المؤسسة (دائرة معارف الأديان والأخلاق، الجزء الرابع: 104 - 9). ورغم أن الأم من الرضاع تلعب نفس دور المرضعة في أزمنة سابقة في أوروبا، إلا أنها تختلف بشكل أساسي عن تلك المؤسسة أيضاً، لأن الأخيرة لا تصنع الطفل والمرضعة في أي علاقة معترف بها قانونياً، رغم قيام ارتباط عاطفي عميق بينهما.

وتبقى مؤسسة قرابة الرضاعة مجالاً غير مكتشف إلى حد كبير في التراث الأنثروبولوجي رغم إظهار علماء الأنثروبولوجيا اهتماماً عظيماً بكافة أشكال القرابة وما يشبه القرابة منذ ظهور هذا العلم كحقل مستقل في نهاية القرن التاسع عشر. وفي الموسوعة البريطانية الحالية على سبيل المثال، ذكرت أخوة الدم بين ازاندي افريقيا وزواج الأشباح بين نوير السودان، وعلاقة الكمبرادزاجو للعرب/والعراة God father/Godchild في أوروبا وأمريكا اللاتينية وما يشبه علاقة الأب/الابن بين بعض الحرفيين اليابانيين ومساعدتهم. لكن لم يأت ذكر لقرابة الرضاعة التي يوجد عنها تراث كامل من الأحكام والضوابط التفصيلية في الفقه الإسلامي. ويظهر أن التركي (1980: 233 - 244) كانت أول عالم أنثروبولوجي كتب بشكل تفصيلي حول الموضوع بالإنجليزية وكان هذا فيما يخص مجتمع المملكة العربية السعودية⁽¹⁾.

لكن هذه المؤسسة ليست محصورة في الإسلام فقط: فكما هو متوقع في تقليد يتعلق بضرورة ملّحة مثل إطعام طفل سيموت إن لم يتوافر له طعام في حالة غياب الحليب المجفف، فهي موجودة في العديد من المجتمعات في أنحاء العالم (فيرنر 1913، المجلد السابع: 371، المجلد التاسع: 138).

قرابة الرضاعة: مشهد ثقافي:

يقال إنه حينما يريد أفراد قبيلة ماساي في غرب أفريقيا إنجاز سلام دائم مع قبيلة عدوة، فإن تلك القبائل تحضر بقرة وعجلاً وامرأة وطفلاً. ويتم تبادل البقرتين

(1) لكن مع ذلك من الواضح وجود مادة علمية نشرت بالروسية، على سبيل المثال ما كتبه دراغدن (1987) وما تورده مصادر أخرى.

ويرضع الطفلان من ثدي المرأة الماسية ويرضع الطفل الماسي من المرأة من القبيلة العدو (هيلز 1905 : 321 - 2).

ولا ينزل أكبر - امبراطور دلهي المغولي وحفيد سلالة جنكيزخان - سوى أخف عذاب ممكن بأخيه من الرضاعة التي سبب له الإهانة بشكل مستمر لأن «بيني وبين عزيز نهرأ من الحليب لا يمكنني تجاوزه» (ماليسون، 1890 : 177). ورغم أن أكبر كان مسلماً، إلا أن مؤسسة الرضاعة بكل تأكيد سابقة على تحول المغول إلى الإسلام. فالمصطلح الذي يشير إلى أم من الرضاعة، وزوجها وابنيها جميعاً كلمات تركية استخدمتها القبائل التركية - المغولية التي ينحدر منها الأباطرة المغول. وإن سمح الأتراك العثمانيون لإخوانهم من الرضاعة الدخول إلى «الحريم» بشكل حر، وهو أمر لا يسمح به عادة سوى لأدنى الأقارب، فإنهم إنما فعلوا ذلك بناء على تقليد قديم أكثر منه بسبب تبنيهم لتقليد إسلامي حديث (موسوعة الأديان والأخلاق 1913، المجلد السادس : 105).

ورغم أن هندوس الهند لا يعترفون بصلة الرضاعة في أعرافهم، إلا أن لایل (1882 : 221) يشير إلى أن أسرة راجبوت الملكية عادة ما تختار مرضعات أطفالها من قبيلة رعوية معروفة. ولأسرة المرضعة مكانة معتبرة وراثية «قربة رضاعة» بداخل الأسرة الملكية والإخوة من الرضاعة يُعطون اعتباراً وقوة في البلاط.

يقدم بيدولف (1880) العديد من الأمثلة على أهمية قرابة الرضاعة بين قبائل جبال هندوكوش، رغم أنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام⁽¹⁾. ويعلق موضحاً أن قرابة الرضاعة - والتي يشير إليها بعلاقة الربيب - كانت موجودة بين كافة الأسر الحاكمة ويظهر أن روابطها أقوى من روابط الدم. فكل الأطفال كانوا يوضعون بعد ولادتهم عند مربية ويتربعون مع أسرتهما. وغالباً لا يرى الأب طفله حتى يكون أو تكون قد بلغ السادسة أو السابعة. وتضع أسرة المربية بكاملها نفسها في خدمة ربيبهم طيلة

(1) تشير عوامل أخرى إلى أن القبائل لم تتبع تماماً العقائد والتقاليد الإسلامية. فبحسب ما يورده بدوليف، لم تأخذ الوثنية في الزواج بشكل جاد؛ فالنساء لا يعزلن والإرث متساو بين الرجال والنساء.

حياتها، ويتحدد حظهم معه. وإذا ما نفى الريب، فإنهم يذهبون إلى المنفى معه: وإذا ما استلم منصباً مهماً فإن أب الريب واخوته سيعطون مناصب ومهام معتبرة. وعند عشيرة اشيمك من قبيلة شيتال في الهندوكوش يرضع كل طفل من كل أم مرضعة في العشيرة. وهناك تبادل مستمر للأطفال بين الأمهات من «أجل تقوية وحدة القبيلة». وفي حالات غياب وجود دليل قاطع بالزنى، بحيث لا يمكن إنزال عقوبة/ ثأر، فإن البيدولف يرون أن الحالة ستعرض أمام الحاكم من أجل اتخاذ قرار وسيأخذ أماناً أو ضماناً للمستقبل من طرف المدعي وذلك بوضع شفثيه على صدر المرأة ذات العلاقة في الحالة المشتبه فيها. وهكذا فإنها منذ ذلك الوقت ستعتبر مربيته (أمة بالتربية) ولن تقوم بينهما أي علاقة أخرى سوى علاقة الأم بابنها. وهذه العلاقة تعد علاقة مقدسة بحيث إنه لا تعرف حالة حطمتها (بيدولف 1880: 77 - 83).

ويوجد مثال مشابه لاشتباه في زنى تمت معالجته في روسيا في القرن التاسع عشر بين السلافيين (كاراشيدز، 1968، ذكرتها دراغدز 1987: 69). ودراغدز نفسها لم تجد سجلاً لمثل هذا التقليد عند الواتشا في جنوب جورجيا حيث أجرت بحثها، لكنها تقول بأن (قربة الرضاعة) هي مؤسسة وإن كانت تقريباً منقرضة إلا أنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من الإطار المفاهيمي للقربة الجورجية في معناها الواسع. واليوم حينما ترضع أم في مستشفى ولادة، طفل امرأة أخرى بسبب طوارئ، فإن الأسرتين ستعلنان أخوة رضاعة. وستبادل أهل الأطفال الزيارات والهدايا والمجاملات وحينما ينمو الإخوة في الرضاعة يتوقع منهم أن يصبحوا أصدقاء طيلة حياتهم. والعلاقة تشكل حائلاً دون زواجهما: فإبنا الرضاعة لا يمكن أن يتزوجا، وهذا يطبق لسبعة أجيال، وإن كان لا يوجد دليل على وجود ذلك فعلاً (دراغدز 1987: 166 - 9).

وكانت في راتشا القرن التاسع عشر وغيرها من الأماكن في جورجيا عادة شكشففولوبا (skhvisshviloba) (أي الطفل الآخر). ويظهر أنها قد مورست لكسب شركاء في التجارة يعتمد عليهم في مناطق عدوانية. فيرسل الجورجيون المسيحيون طفلاً حديث الولادة لشريكهم التجاري المسلم في شمال القفقاز إن كان عرف أن

زوجة الأخير ترضع. ويفعل المسلمون الشيء نفسه لكن مع شريك تجاري آخر. ويظهر أن هذه العادة خدمت. عرض إظهار وجود ألفة تامة بين الأطراف المعنية. ويبقى الطفل عند العائلة حتى يصل/ تصل العاشرة أو الحادية عشر، وعندها يعود/ تعود كدليل أن والدي التربية لم يحصلوا على مصدر عمل رخيص. فلقد قامت «الصفقة» أساساً من أجل أجيال المستقبل: سيتكلم إخوة الرضاعة نفس اللغة، ويعرفون نفس العادات، وسيساعد كل واحد منهما الآخر في التجارة والانتقال والضيافة. وتستمر العلاقة لسبعة أجيال، ومعها تحريم الزواج فيما بينهم، وخلف أبناء الرضاعة لا يمكنهم الدخول في علاقة شيكشفولابا أخرى، ولا يمكنهم الزواج حتى وإن سمحت لهم أديانهم وأوضاعهم الاجتماعية بذلك (رخيشفيلي 1974 ذكر ذلك في كتاب دراغز 1987: 166 - 9).

ويعترف سلاف جنوب وشرق أوروبا المسيحيون بقرابة الرضاعة كمانع للزواج واستخدموها مع أنواع أخرى من علاقات القرابة «الخيالية»، وما عُرف بالقرابة الروحية لمنع الزواج الداخلي (مين 1991: 257)، ورغم احتمال أن هذه العادة استمدتها سلافيو الجنوب من جيرانهم المسلمين (دائرة معارف الأديان والأخلاق 1913: المجلد السادس: 104)، إلا أنه يظهر أن وجود المؤسسة - خاصة إن أخذنا المعلومات المتوافرة عن جورجيا في الاعتبار - سابقة للإسلام وكانت موجودة في مجتمعات عديدة كما يرى مين (1893 - 241) ⁽¹⁾.

القرابة في الإسلام:

قبل الحديث عن قرابة الرضاعة وبالذات عند شيعة إيران، من الضروري التعرف على الدور الذي تلعبه القرابة عموماً في المجتمعات الإسلامية وكيف

(1) يذكر مين أن ممارسة التبني: «شائعة معروفة في المجتمعات الآرية» (1893: 241) لكنه لا يورد مصادره. فهل كان يقصد أن يشمل معظم أوروبا وغالبية غرب وجنوب آسيا في تعميمه، أي كل المناطق حيث يسود استخدام اللغات الهندو - أوروبية؟ أم أن مين يميز بين التبني القائم على إرضاع طفل آخر والتبني القائم على تربية طفل آخر، أنظر مناقشتي لهذا الموضوع في الخاتمة.

تؤثر على المسلمين في حياتهم اليومية. بعبارة أخرى، يجب أن ينظر إلى قرابة الرضاة في سياق أشكال أخرى من القرابة إذا ما أريد فهم القواعد الإسلامية حول مؤسسة القرابة بشكل أفضل.

يقال عادةً إن الإسلام ليس مجرد دين وإنما هو طريقة حياة. وتعتمد الشريعة على القرآن والسنة، وهي أقوال وأفعال الرسول الواردة عن ثقافت. وفي كل واحد من المذاهب السنية الأربعة (المالكي والحنبلي والحنفي والشافعي وكتب فتاوى المجتهدين في إيران الشيعية التي يجمعون معلومات ليستخدمها مقلدوهم، قد حددت، غالباً حتى التفاصيل الدقيقة في الكيفية التي يجب أن يتصرف بها المسلم/ المسلمة الملتزم في حياته اليومية. وتنبع الفروق بين المدارس الفقهية المختلفة من حقيقة أن الأحاديث المقبولة عند مدرسة قد تختلف عن مدرسة أخرى أو أن نفس الحديث قد يفسر بشكل مختلف⁽¹⁾.

ولقد حددت قواعد عديدة درجات القرابة المحددة للزواج لأن روابط القرابة تفرض نوع السلوك والتفاعل الاجتماعي المسموح بين الجنسين. وبشكل أساسي تطلب القواعد الإسلامية أن طرفي الزواج الممكنين، والتي يشار إليهما بغير المحارم لا يسمح لهما بالاختلاط. فالحجاب الصارم من طرف المرأة مطلوب، ومن المستحسن أن يكون سلوك الرجل والنساء محتشماً. وعدم الالتزام بهذه القواعد يمكن أن يؤثر في مصداقية عبادة المسلم اليومية. أما الذين لا يمكن الزواج بينهم بسبب رابط من روابط القرابة - سواء قرابة دم أو مصاهرة أو رضاة - فيُعرفون بالمحارم، وهم رجال ونساء مسموح لهم الاختلاط بحرية: والحجاب ليس مطلوباً وتوجد بساطة وألفة في العلاقة. وهكذا فإن الأحكام التي تحدد دائرة الذين يمكن الزواج منهم، توسع من جهة أخرى مدى العلاقات الاجتماعية مع الجنس الآخر في تجربة المسلم الملتزم في حياته اليومية بترتيب «زيجات مصلحة» لتمكين الآخرين من الجنس الآخر من الاختلاط دون الإخلال بالقواعد الإسلامية (خطيب - شاهدي

(1) لمعرفة الفروق بين الشيعة والسنة بشكل واضح أنظر هولستر 1953، الفصل 1 - 4.

1980: 125 - 7)، كما هو الحال في قرابة الرضاعة، وذلك بخلق علاقة رضاعة بشكل مقصود لنفس الغرض (التركي 1980: 240/خطيب - شاهدي 1981: 125) أو لمنع زواج يرون أنه غير مرغوب فيه (التركي 1980: 240 - 1).

ومعظم الذين علقوا على مؤسسة القرابة بالرضاعة يرون أنها مؤسسة جاهلية (قبل إسلامية) (ويلسون 1921: 57) وأن أصولها تعود إلى العادات المنتشرة في الجزيرة العربية في عصر النبي. بل إن النبي محمداً (ص) نفسه وضع مع مرضعة من بني سعد وبقي عندها حتى الخامسة من عمره (موسوعة الأديان والأخلاق 1913: 104). ولقد كان لأطفال نبلاء مكة حتى وقت متأخر نسبياً مرضعات بدويات (SEI 1953: 463) ويعطي القرآن اهتماماً بسيطاً للمؤسسة، ويحددها باعتبارها بين موانع الزواج بين المرضع وأمه بالرضاعة وأخته بالرضاعة (سورة 7: 23). وإنما هي الأحاديث التي فصلت هذا التقليد... ورغم وجود اتفاق عام حول المبادئ ذات الصلة، إلا أنه توجد اختلافات في الآراء حول تفاصيل معينة بين المدارس الفقهية السنية الأربع⁽¹⁾؛ أما بين العلماء الشيعة، في الماضي والحاضر، فلا يوجد اختلاف كبير على ما يظهر. وتتمركز الفروقات في الآراء حول كمية الرضاعة الموجبة لقيام علاقة قانونية؛ وما إذا كان الحليب يجب أن يؤخذ مباشرة من الثدي، والفترة التي تقع فيها الرضاعة من عمر الطفل، ومدى التحريم في الزواج بين الأقرباء بالرضاعة. أما فيما يخص المسألة الأخيرة فتظهر تعقيدات إضافية في الفقه الشيعي لأن القريب بالرضاعة لأم بالرضاعة وزوجها («مالك» الحليب)، إذا ما أرضعوا من طرف امرأة أخرى غير والدتهم، فإنهم سيدرجون ضمن هذا المدى من المحارم كأطراف غير ممكن حدوث التزاوج بينهم.

قرابة الرضاع في إيران:

القواعد الشيعية التي تظهر في هذا القسم اعتمدت على النص الفارسي لكتاب

(1) اختصرت القواعد 1474 و2496 وحذفت القواعد 2486 - 2575 لعدم وجود مكان كاف. وهذه القواعد تعالج بشكل أساسي الأحكام الدقيقة التفصيلية التي أشرنا إليها.

آية الله الخميني «رسالة توضيح المسائل» (د.ت: 392 - 9) 2464 - 2474 و 2487 - 2497 والتي تختلف قليلاً عما يراه الفقهاء الإيرانيون في يومنا هذا مثل آية الله الخوئي والخوانساري والشهرستاني أو ما قاله فقهاء عاشوا في قرون ماضية⁽¹⁾.

محارم قرابة الرضاعة

يحرم الزواج من الأشخاص التالية سماتهم:

1 - الأم بالرضاعة

2 - زوج الأم بالرضاعة، والأب بالرضاعة الذي يملك الحليب

3 - أم الأب من الرضاعة والأم وأسلافها بما في ذلك أمها وأبوها من الرضاعة.

4 - أبناء الأم بالرضاعة سواء قبل أو بعد الرضاعة.

5 - أبناء وأحفاد الأم بالرضاعة سواء كانوا مولودين لأطفالها أو أحفادها وأرضعوا الأطفال (أي أنهم خلف بالرضاعة).

6 - إخوة وأخوات الأم بالرضاعة، سواء كانوا إخوتها نسباً أو رضاعة (أي أنهم يعدون أعماماً وأخوالاً وعماتٍ وخالاتٍ).

7 - الأعمام والأخوال والعمات والخالات بالرضاعة، سواءً أكانوا كذلك نسباً أو بالرضاعة.

8 - أطفال زوج الأم بالرضاعة سواءً أكانوا أطفالاً نسباً أو بالرضاعة، على المولود من زوجة أخرى (أي أنهم ربائب للأم بالرضاعة) وخلفهم لأن الحليب ملك الزوج.

(1) بين بعض السنة وجدت أيضاً ممارسة إرضاع بالغين لتأسيس قرابة الرضاعة في الماضي (أنظر SEI، 1953، ص 463 - 4).

9 - الأبوان نسباً ورضاعة للأب بالرضاعة وسلفهم.

10 - إخوة وأخوات الأب بالرضاعة، سواءً أكانوا إخوة وأخوات نسباً أو بالرضاعة.

11 - أعمام وأخوال وعمات وأخوال الأب بالرضاعة وأسلافه سواءً أكانوا كذلك نسباً أو بالرضاعة (2464).

فأب الطفل الذي رضع لا يمكنه أن يتزوج أخت الأم بالرضاعة؛ ولا يمكنه أن يتزوج بنات الأم بالرضاعة (أي من زواج آخر). وينصح بشدة أنه أن لا يتزوج بنات الرضاعة من الأب بالرضاعة. ولكن من المسموح له أن يتزوج من بنات الرضاعة من الأم بالرضاعة، ويحسُن أن لا يعتبرهم محارم، ولا ينبغي أن يتصرف معهم كما لو كانوا محارم (2465).

ولا يحرم الأب بالرضاعة من الزواج من أخوات الابن بالرضاعة لكنه ينصح بعدم الزواج منهن. ولا يحرم أقارب الأب بالرضاعة من الزواج بإخوة أو أخوات الابن بالرضاعة (2466).

لا تحرم الأم بالرضاعة من الزواج من أخوات ابنها بالرضاعة. ولا يحرم على أقاربها الزواج من إخوة وأخوات الأبناء (2467).

وإذا ما تزوج رجل امرأة، وتم الزواج (أي دخل بها) فإنه لا يمكنه أن يتزوج من ابنتها بالرضاعة (2468).

وإذا تزوج رجل فتاة، فإنه لا يمكنه أن يتزوج من أمها بالرضاعة (2469).

لا يمكن للرجل أن يتزوج بفتاة رضعت من أمه أو جدته، ولا يستطيع الرجل أيضاً أن يتزوج من فتاة إن كانت زوجة والده قد أرضعت الفتاة من حليب الأب. وإذا تزوج طفلة رضعت من حليب والده، ولاحقاً أرضعت أمه أو جدته أو زوجة والده تلك الطفلة، فإن عقد الزواج يفسخ (2470).

ولا يمكن للرجل أن يتزوج من فتاة قد أرضعت من أخته أو زوجة أخيه، إن كان الأخ مالك الحليب. وتطبق نفس القاعدة إذا أرضعت بنات أو أحفاد أخ الرجل

أو بنات أو أحفاد أخواته (2471).

وإذا ما أرضعت أم طفل ابنتها، فإن ابنتها تصبح محرمةً على زوجها (أي زوج ابنتها) (ويصبح زواجهما بالتالي منفسخاً). وتنطبق نفس القاعدة إذا أرضعت المرأة ابنة ربيبتها: تصبح الابنة محرمة على زوجها. لكن إذا أرضعت الأم طفل ابنها، ابن زوجة ابنتها وهو طفل الأم، فإنها لا تصبح محرمةً على زوجها (2472).

وإذا ما أرضعت ابنة زوجة الأب (أي أم الربيبة) حليب أبيها لطفل زوجها (أي زوج الفتاة): فإن تلك الفتاة تصبح محرمةً على زوجها. وتظل هذه القاعدة سارية سواءً أكان الطفل طفلها أو طفل زوجةٍ أخرى لزوجها (2473).

قواعد مرتبطة بتأسيس قرابة الرضاعة:

ينبغي أن يرضع الطفل من امرأة واحدة لفترة من الزمن كافية لأن يسهم الحليب في نمو الطفل. ويعتقد أن إرضاع خمس عشرة مرة أو لمدة أربع وعشرين ساعة خلالها ينبغي أن يكون الطفل خلالها قد أرضع امرأة واحدة فقط (2474).

وينبغي أن يشهد على وقوع الرضاع عدول أو رجلان وأربع نساء عُرفوا وعُرفن بأمانتهم وسمعتهم الطيبة. وينبغي أن تكون الشهادة أن المرأة أرضعت الطفل للوقت المحدد أعلاه وأنه رضع حليبها فقط (2496).

توصيات في اختيار المرضعة أو الأم من الرضاع:

الأم ليست مجبرة أن ترضع طفلها من لبنها، وإن كان يعتقد أنه من الأفضل أن تفعل ذلك. وسيكون للأم الفضل إن فعلت دون أن تتوقع أجراً، لكن ينبغي على الزوج أن يعوضها لهذه الخدمات. وإذا ما طلبت الأم أجراً أكثر من مرضعة (بالفارسية داية)⁽¹⁾، فإن باستطاعة الزوج أن يحضر مرضعةً بدلاً عنها (2487).

(1) «الداية» بالفارسية مصطلح عام يشمل الممرضة والمربية وقد يعني أيضاً مرضعة.

ويستحسن أن تكون الداية مسلمة ملتزمة على المذهب الإثني عشر. وينبغي أن تكون امرأة ذكية وعلى قدر من الأخلاق (عفيفة) وجذابة. وينبغي تجنب المرأة الغبية أو غير المسلمة الإثني عشرية المذهب، وكذلك تجنب قبيحة المنظر أو العصبية المزاج أو بنت الزنا أو اللقيطة. كذلك ينبغي تجنب الداية التي لها طفل غير شرعي (2488).

قواعد وتعليمات متنوعة:

على النساء التوقف عن إرضاع عدد كبير من الأطفال إذ قد ينسين من قمن بإرضاعهم وهكذا قد يتزوج محارم من بعضهم (2489).

إن من يصبحون أقارب بالرضاعة يبرّون بعضهم بعضاً لكنهم لا يتوارثون، وليس لهم حقوق أخرى (أي حقوق أقارب النسب) (2490).

يستحسن أن تكون مدة الرضاعة عامين (2491).

إذا كان إرضاع طفل لا يسبب أي ضرر لحقوق زوج المرأة، فإن المرأة بإمكانها أن ترضع دون إذن زوجها. لكن من غير المسموح به أن ترضع طفلاً إن كان ذلك سيجعلها محرماً لزوجها. فمثلاً لا تستطيع المرأة أن ترضع زوجة زوجها الصغيرة (الطفلة)، لأنها إن فعلت ستصبح أم ضررتها ومن ثم ستكون محرمةً عليه (ويصبح عقد زواجها فاسداً) (2492).

وإذا أراد رجل أن يجعل زوجة أخيه محرماً له، ينبغي أن يتزوج طفلةً لفترة قصيرة وفي تلك الفترة واعياً الشروط المذكورة في المادة (2474)، ينبغي أن يسلم الزوجة الطفلة لزوج أخيه لترضعها (2493).

إذا ما قال رجل قبل زواجه من امرأة إن المرأة محرمة عليه بالرضاعة لأن أمه، مثلاً، أرضعتها وإن كان ادعاؤه مقبولاً فإنه لا يستطيع أن يتزوج تلك المرأة. وإذا ادعى ذلك بعد الزواج ووافقت المرأة على ذلك، يصبح الزواج فاسداً وملغى. وهذا هو الحال سواء تم الدخول بها أم لا. لكن إن كانت المرأة تعرف هذه العلاقة عند قيام الزواج، فإنها تصبح محرماً له ولا تستحق مهرها. أما إن كانت العلاقة قد

عُرفت بعد الدخول بها فإن على الزوج أن يعطيها مهرها (2494). وإذا قالت امرأة قبل حفلة العقد إنها محرم بالرضاعة للرجل، فإنها تصدق ولا يمكنها أن تتزوج ذلك الرجل. وإذا قالت ذلك بعد ذلك فإن القاعدة في (2494) تطبق، ويصبح الزواج فاسداً (2495).

قراة الرضاعة في إيران:

أدخل الحليب المجفف إلى إيران في الأربعينات. وقد أدى ظهوره دون شك إلى تقليص مؤسسة قراة الرضاعة في الطبقات الوسطى العليا التي يمكنها استئجار المرضعات. أما إلى أي مدى بقيت العادة بين الفئات الريفية والحضرية العاملة فإنها مسألة غير موثقة توثيقاً جيداً. ويتناول بحثي فقط العادة كما توجد في ذاكرة وتجربة الجيل القديم الذي تعود أصوله إلى طبقة الملاك السابقة وهي مجموعة نخبوية نسبياً. لكن مع ذلك، وكما علق في كتاب المرأة والمجال (اردنير 1981: 113)، فإن الفرق بين الغني والفقير في إيران حتى منتصف السبعينات، إجمالاً، كان فرقاً في الدرجة أكثر منه فرقاً في النوع: فالغني لديه أكثر مما عند الفقير، وأساليب حياتهم، وإن اختلفت جداً في المقياس، إلا أنها اعتمدت على قيم ومعتقدات وعادات مشتركة. ومعلوماتنا الأثنوجرافية حول مؤسسة الرضاعة من وجهة نظر المجتمع الإيراني عموماً محدودة، لذا يمكن أن نذكر هنا فقط كيف كان الإيرانيون يتصرفون بالوفاق مع الأعراف، أو بخلافها.

كانت هناك حالات يظهر فيها دور المرضعة/الأم بالرضاعة بوصفه أمراً أساسياً جداً عند ولادة طفل: من ذلك حالة وفاة أو مرض الأم أو حال حدوث حمل آخر بينما الطفل لا يزال يرضع. على أنه لا توجد أمثلة على استخدام علاقة قراة الرضاعة لمنع عدم الاختلاط أو الحجاب أو لمنع زيجات. في الحقيقة، وجد فقيه أن استخدام الرضاعة لمثل هذه الأغراض أمر مستهجن وغريب. وربما كان سبب ذلك، هو أنه في الإسلام الشيعي توجد وسائل أسهل لحدوث ذلك مثل الزيجات الشكلية (خطيب - شاهدي

(1981 : 125 - 8) (1).

فمثلاً الخدم في منازل بعض الإيرانيين الأتقياء يحولون إلى محارم عن طريق عقود زواج متعة: فالخادم/ خادمة يتزوج ابن أو ابنة صاحب البيت، وغالباً ما يكون طفلاً لا يعرف شيئاً مما حدث باسمه أو اسمها. عندها يصبح الخادم/ الخادمة عضو من الأسرة. ولقد سمح هذا للمسلمين الملتزمين أن يقومون بحياتهم اليومية بضمير صافٍ في حضور خدم من الجنس الآخر. وسمح أيضاً أن تقوم الخادمة بعملها دون أن يكون عليها حجاب صارم أمام ذكور البيت، وهو أمر كان يمكن أن يحول دون قيامها بعملها بشكل فعال (خطيب - شاهدي 1981: 114 - 6؛ 125 - 8).

أما فيما يخص استخدام قرابة الرضاعة لمنع زيجات، فإن اهتمام الإيرانيين حينما يمارسون عادة الرضاعة تجنب اختيار مرضعة/ أم بالرضاعة يمكن أن تؤثر في ترتيبات زواج في المستقبل. ولا يظهر أنه كانت عند أحد فكرة عن مدى تأثير قرابة الرضاعة على تحريم الزواج بين أشخاص مرتبطتين بالرضاع وليسوا إخوة بالرضاعة. فحتى رجل عمره ستون عاماً له أم بالرضاعة، والذي كان قبل أن يصبح طبيباً كان يتدرب ليصبح مُلاً (شيخ دين)، ليس لديه فكرة. وهكذا فإن القواعد الإسلامية التفصيلية ليس لها كبير أثر على مؤسسة الرضاعة، كما تمارس في هذا القرن.

وكما ذكرنا فإن مرض أو وفاة الأم وبداية حمل جديد كانت أسباباً جديدة لاستدعاء امرأة أخرى لإرضاع طفل. والنساء الإيرانيات في الطبقات الوسطى والعليا على غير شاكلة مثيلاتهن الأوروبيات في القرون الماضية كن يرضعن أبناءهن (روسي 1984؛ نكر 1974؛ اليك 1974؛ مارفيك 1974؛ فلاندرين 1976، دنزلت 1980؛ فيليبرز 1988). والأمثلة على السبب الثالث - وقوع حمل آخر - متكررة، وفي مثل هذه الحالات كان حليب المرأة يعد حليباً

(1) من المفيد ملاحظة أن أحد الأخباريين ممن ظنوا أنه من الغريب أن تذكر نفس السيدة المسنة التي أوردت رأيها في مقالتي بأن حفيدتها «تزوجت» ابن زوجها بحيث يمكن للآخر أن يسافر في صحبة السيدة العجوز إلى مكة كمحرم.

فاسداً (مسموماً)، لأنه متغير الشكل وكان الانطباع أن التغير هو تغيير في مبيض الأم، وهذا التغير سلبي بالنسبة لصحة الطفل ونموه؛ على أنهم لم يكونوا يفكرون أنه قد يسبب أذى للأم أو الجنين⁽¹⁾.

وإذا ما بدا أن النساء الإيرانيات نادراً ما يعطين أطفالهن لمرضعات فإن هذا قد يكون جزئياً لأنهم يعتقدون أنه من الصعب الحصول على مرضعة مناسبة وعلى عكس مثيلاتها الأوروبيات والعربيات في الماضي، لا يظهر أنهن كن راغبات في إرسال أطفالهن إلى أسر المرضعات ليقمن برعايتهم؛ وعامةً فإن نساء الطبقات العليا اللائي يطلبن مرضعة فإنهن يجعلنها تسكن عندهم، وفي حالات استحالة ذلك، بسبب التزامات أسرة المرضعة، فإنها قد تأتي لمنزلهن في أوقات معينة. ولقد فرضت هذه العوامل موانع على توفر المرضعات. فهن إما أن لا تكون لهن صلات أسرية (عائلية) أو أنهن يسكن قريباً منهن بحيث يتمكن من المجيء في الأوقات المطلوبة.

ثانياً، كما ذكرنا في القواعد الإسلامية، فإن المرضعة يجب أن تكون إنسانة على خلق وذات بنية سليمة. ويعتقد الإيرانيون، مثلهم مثل العديد من الشعوب، أن مزايًا وعيوب المرأة التي ترضع طفلاً ينبغي أخذها في الاعتبار؛ إذ تنتقل إلى

(1) هذا ما أشار إليه الطبيب الفارسي ابن سينا (980 - 1036) كما أوردت ذلك فاليري - فيليدز (1988) في كتابها الموثق عن الرضاعة. ولقد ذكرت كندال (1978: 107) في مكاتبتها عن نساء قرية إيرانية هذا لكنها تقول إنهن إن أصبحن حوامل في الصيف، فإنهن يستمررن في الإرضاع إذ يرين أن تغير الحليب المقدم للطفل أخطر عليه من إمكانية وجود أضرار عليه من حليبهن.

ولقد أخبرني شولي فيشر الخبير في الرضاعة الطبيعية من مستشفى جون راد كليف في أكسفورد أنه حينما تصبح المرأة حاملاً وهي لا تزال ترضع، فإن الحليب يقل في كميته ويتغير في نوعيته وتركيبه. على أن بعض الناس يعتقدون أن الاستمرار في الرضاعة يسبب الوضع المبكر، لكن لا يوجد دليل طبي يؤكد هذا الرأي. وتصبح حلمات الأم المرضع ألين، مما يجعل الإرضاع مؤذياً، وغالباً ما يرفض الطفل نفسه حليب أمه ويجب فطامه. على أن أحداً من مُخبري لم يذكر هذه الأمور.

صديقة حميمة للأسرة، لكن أمثال هؤلاء السيدات لهن أيضاً أطفال يمكن أن يكونوا في المستقبل أزواجاً محتملين، لذا فإنهن لا يعتبرن مناسبات. ولقد ذكرت حالات عديدة، حيث كان من السهل لأخت الأم، مثلاً، أن ترضع الطفل لكنها لم تستخدم لأن ذلك قد يؤثر على ترتيبات زيجات في المستقبل. وفي حالة واحدة فقط استخدمت قرية وكان ذلك فقط لأنهم عجزوا عن الوصول إلى مرضعة مناسبة من خارج الأسرة. لكن مع ذلك توجد مؤشرات أن هذا الموقف موقف طبقي. ففي الأسر المتواضعة نوعاً ما وفي طبقة التجار في إيران يظهر أن المرضعات في الغالب هن من الأقارب الحميمين. وربما يعكس ذلك في الحالة السابقة العجز المالي عن دفع مصاريف مرضعة، وفي الحالة الأخيرة التضحية بترتيبات زيجات في المستقبل داخل الأسرة الممتدة لم تكن لها نفس الأهمية التي لها بين طبقة الملاك. وملاك الأراضي في إيران، وهم أحياناً يملكون قرى بكاملها، كانوا في وضع أفضل بحيث يعرفون الشخص المناسب ويسبب موقعهم، أيضاً، فإنهم أكثر تأهلاً لأن يجدوا من يوافقهم على السماح لزوجته أن تصبح مرضعة لهم. لكن فقط عن طريق دراسة ميدانية أوسع على قطاعات الشعب الإيراني يمكن أن نقرر ما إذا كانت هذه الملاحظات صحيحة أم لا.

وكما قد يتوقع، فإن المرضعة التي تعيش في بيت العائلة تأتي من طبقة أدنى من طبقة أسرة الرضيع. وكونها تقدر على البقاء في بيتهم يشير إلى أن شيئاً ما خطأ في حياتها مما جعلها لا تعيش مع أسرة زوجها أو أسرته. ورغم أن مثل هؤلاء النساء احتلن موقعاً غامضاً داخل أسرة الرضيع، فهن يخدمن في مجال دور عائلي لحد كبير، لذا فإنهن يعتقدن أن لهن مكانة عالية داخل الأسرة أعلى من الخدم ولذا يعملن بشكل مختلف عنهم. ولكن مع ذلك، هذا لا يعني أنهن يحترمن كما تخدم الأم: فهن لا يزلن خادמות محترمت، والمرضعة واحدة من العاملات داخل العائلة واللواتي يوجدن بشكل واسع في بيوت الطبقة العالية الإيرانية حتى منتصف القرن العشرين وما قبله. لكن مع ذلك فإن العلاقة بين المرضعة وأم الرضيع تتقاطع مع صلات الأقارب الطبيعيين: فهي بطة طفلها الخاص في مقابل بقية أفراد الأسرة؛ والطفل سيساعد مرضعته عندما يكون هناك جدل أو

لوم يخصصها داخل الأسرة.

والمرضعة التي لا تعيش مع الأسرة تتمتع بمكانة أعلى من زميلتها التي تسكن معها: فهي «تنتمي» إلى أسرتها، وحقيقة أنها قادرة على تقديم خدمة ثمينة لجارة من الطبقة العليا يجعل الجارة في موقع المتلقي، بدلاً من المعطي - وهو موقع قوة في مجتمع تسوده علاقة السيد - الزبون. ومثل هذه المرضعة لا ولن تتوقع مقابلًا مالياً لخدماتها. ويعني ذلك علاقة متكافئة تتمتع بها مع أسرة الرضيع. وبدلاً عن النقود ستعطي هدايا كقمماش شادور أو حلي «ذهبية» تعطي عادة كهدايا، بدلاً من الأجر، وكذلك تعطيها ملابس لأسرتها. ورغم أنه يظهر أن المعيار أن أسرة الرضيع غالباً ما تكون من طبقة أعلى وأن المرضعة من طبقة دنيا، لكن هناك حالات عديدة معروفة كانت فيها المرضعة من طبقة عليا تطوعت لإرضاع طفل آخر من طبقة دنيا لأن الأولى عندها حليب كثير والأخيرة مريضة. وكان هذا يعتبر عملاً خيرياً.

وتوضح بعض الحالات القليلة التي نوردها فيما يلي ما ذكرناه. الأمثلة المذكورة لحالات فعلية وقعت فيما بين خمس وأربعين وستين سنة مضت.

الحالة الأولى:

فتاة من أسرة كبار الملاك، تزوجت وعمرها عشرة أو إحدى عشرة سنة وكان لها طفلان حينما وصلت حدود الخامسة عشرة، وكانت ترضع طفلها الأول. وكان عندها حليب كثير بحيث كان ثديها يسبب لها ألماً شديداً. سمعت أن إحدى زوجات القرويين مرضت وقت الولادة وأصبحت غير قادرة على إرضاع طفلها. فعرضت عليها إرضاع ابنها ومن ثم أحضرت المرأة طفلها لها لهذا الغرض. لكن زوجة الثري بعدها أصبحت حاملاً بطفلها الثاني وهي لا تزال ترضع (كان طفلها الأول في شهره الرابع) مما يعني أن على الأسرة أن تحصل على مرضعة لطفلها الأول. وكانت المرأة التي وقع عليها الاختيار من أسرة من الأسر القروية الثرية من ملاك الأراضي من قرية مجاورة؛ وكانت سيدة من أحفاد النبي، كما كان حال أسرة المرأة الثرية. وكانت المرضعة

تحضر إلى البيت أربع مرات في اليوم لإرضاع الطفل وكانت آخر رضعة في العاشرة مساءً وكان على الخدم أن يصحبوها في مجيئها وعودتها إلى بيتها وكان يعطى للطفل سكر وماء في أثناء الليل حينما لا تكون موجودة. لم تعطى المرضعة أي نقود لكن أسرتها أعفيت من دفع ما تدفعه عادة من مبالغ لمالك الأرض؛ وكانت تعطى هدايا من الأقمشة والحلي الذهبية في عيد النيروز (بداية السنة الإيرانية والذي يأتي في أول أيام الربيع).

الحالة الثانية:

اضطرت زوجة أحد ملاك الأراضي أن تحصل على مرضعة لطفلها الثاني الذي بلغ من العمر ستة أشهر حينما حملت بطفلها الثالث. ولقد امتنعت الرضیعة عن تناول أي طعام آخر أو حتى الحليب رغم أنها كانت كبيرة بما فيه الكفاية لتتوقف عن الرضاعة. ولقد وجدوا بصعوبة مرضعة كانت زوجة ثانية لرجل مسن تركته بعد ولادتها الطفل، وفي الحقيقة توفي بعد مغادرتها. بقيت مع الأسرة عشرين سنة وساعدت في رعاية الطفل الثالث كمربية. ولقد تزوجت بعد ذلك مرة أخرى لكن دون إذن أسرة الملاك. وحينما وضح أن الزواج كان زواجاً فاشلاً، عادت لهم، ورتب لها زواج آخر، لكن هذه المرة بموافقة الأسرة. وهي تعيش الآن في مدينة قم مع زوجها الحالي.

الحالة الثالثة:

رجل الآن في الستينات من عمره كانت له مرضعة تأتي لمنزلهم لأن والدته كانت مريضة. توفيت والدته حينما كان عمره خمس سنوات. عندها اهتمت به مرضعته كما لو كانت والدته. ولم تكن المرضعة تُعطى أجره منتظمة على خدماتها إذ كان ذلك غير مقبول؛ وبدلاً من ذلك كانت تعطى مقابل ذلك أي شيء تحتاجه لأسرتها.

نتائج قرابة الرضاعة: أهميتها في الإسلام:

ربما كان الفقهاء المسلمون قد شعروا بضرورة التفصيل بتطويل فيما يظهر لنا

باعتباره تفاصيل مملّة، لكنها عظيمة القدر حينما نأخذ في اعتبارنا بعض جوانب الحياة الاجتماعية في الأقطار المسلمة إذ في إيران وفي أجزاء أخرى من العالم الإسلامي يعني الجهل بالقوانين المتعلقة بدرجات تحريم القرابة من طرف الرجال والنساء والأطفال سلوكاً اجتماعياً غير مناسب بين الجنسين. وهذا يمكن أن يؤثر على الواجبات التعبدية للمسلمين الملتزمين الذين بالنسبة لهم النظر لغير محارمهم أثناء الصلاة سيعني أن صلاتهم ألغيت ويجب إعادتها (خطيب - شاهدي 1980: 114 - 5). وهكذا فإننا وإن توقعنا أن بعض القواعد المرتبطة بقرابة الرضاعة قد روج لها أناس يفكرون في حالات افتراضية قدموها كمشاكل للفقهاء لحلها، وهي أيضاً يمكن أن تعكس التطبيقات السلوكية لدرجات تحريم القرابة في الزواج: فهي لا تقدم مؤشراً من هو الذي قد يتزوجه الشخص، ولكن تقدم مؤشراً على مَنْ الجنس الآخر يمكن للشخص أن يتصرف معهم بشكل مرتاح أو لا.

فالبيت الإيراني المسلم حتى الوقت الحاضر، وإن كان أكثر في الماضي، عادة أكبر مما هو عليه الحال في الغرب، ويشمل غالباً أعضاء الأسرة الممتدة إضافة إلى الخدم. وقد تبدأ عملية الإنجاب بالنسبة للنساء في سن مبكر (قبل العشرين) وتستمر حتى سنّ اليأس؛ وقد يكون الأعمام والأخوال والعمات والخالات (المحارم الأقارب) في نفس عمر وربما أصغر من أبناء إخوتهم أو أخواتهم؛ وقد تكون الجدات يلدن في نفس الوقت الذي تلد فيه حفيداتهن. بعبارة أخرى، قد تكون المرحلة الجيلية التي تساعدنا على تنظيم سلوكنا الاجتماعي وتنحكم في اختيارنا شريك الحياة مفقودة في المجتمع المسلم. وقد لا يفهم الأطفال التبعات القانونية، أو العلاقات المضبوطة التي يحملونها بعضهم لبعض حينما يكونون صغاراً، والتفريق بين المحارم وغير المحارم الذي يقوم عليه تقسيم عالمهم الاجتماعي يتعلم بسهولة دون الحاجة إلى أوصاف أنواع القرابة المعقدة.

أما فيما يتعلق على وجه الخصوص بقرابة الرضاعة، سيكون من الواضح مما قلناه بأن لإرضاع الآخرين تبعاته - واستخداماته - التي تذهب إلى ما هو أبعد من مجرد إطعام طفل في حاجة لطعام. قرابة الرضاعة يمكن أن تقلص مدى الزوجات

أو الأزواج الممكنين/المحتملين بشكل جذري، وبالذات حينما يكون قريب مثل الخالة أو جار استخدم كمرضعة/أم بالرضاعة. ورغم أن البيانات الإثنوغرافية التي جمعتها تشير إلى أنه في الأوقات الحديثة في إيران الناس قد يخوضون في قرابة الرضاعة في حالات الضرورة فقط، على أن هذا يجب أن لا يحجب حقيقة أنه في الماضي قد تكون مؤسسة الرضاعة استخدمت بشكل واسع عموماً. وتشير القواعد الإسلامية نفسها إلى اهتمامين اجتماعيين هما:

أولاً: ضرورة إدماج أسرة المرضعة لطفل غير طفلها في عائلة الرضع بطريقة خاصة وغير قابلة للتبديل؛ ثانياً وللتأكيد على أن هذه الرابطة التي أقيمت بهذه الصورة أصبحت عائقاً دون الزواج. بعبارة أخرى، قد تكون تتعامل مع مؤسسة لها كجزء من وجودها الفعلي في الماضي ضرورة الدخول في حلف مع أسرة سيتجنب الزواج منها بشكل إيجابي. والبيانات الإثنوغرافية التي ذكرتها من مجتمعات أخرى تدعم هذا الاقتراح نوعاً ما.

والبيانات عن ملكية راجبوتسي وعن مسيحيي جورجيا وقبائل الجاهلية العربية جميعها تعطي مؤشراً على أن العلاقة قد استخدمت كوسيلة للحصول على أصدقاء وحلفاء. فالزواج قد يكون بنفس الغرض لكن في كل هذه الحالات ربما كانت هناك أسباب لاستخدام الرضاعة وليس الزواج. فمثلاً يسمح نظام الطوائف الهندي عادة بالزواج داخل الطائفة فقط، لكن قرابة الرضاعة يمكن أن تمتد إلى خارج الطائفة. ولا يسمح لمسيحيي جورجيا بالزواج من المسلمين، لكنهم سمحوا بعلاقات الرضاعة معهم. وفي الجاهلية حينما كان الزواج داخل القبيلة هو ما جرت به العادة فإن قرابة الرضاعة كانت مرغوبة لكسب تحالف القبائل المجاورة.

قرابة الرضاع: أهميتها كموضوع للدراسة:

إذا ما ظهر أن مؤسسة قرابة الرضاعة قد أخذت في الاختفاء كما هو الحال في إيران، بظهور الحليب المجفف، فإنه يكون علينا أن نتساءل عن أهمية دراسة قرابة الرضاعة اليوم، والإجابة، حسب ما أرى - يجب أن تكون وبشكل دقيق أن أهمية

ذلك تعود إلى أنها لم تُدرس من الناحية الأنثروبولوجية بشكل جيد من قبل. صحيح أنها تتجه اليوم إلى الاختفاء، لكن هناك من لا يزالون يعيشون ويتذكرون هذه العادة، ومن لهم أقارب بالرضاعة. والسؤال الملح ما الذي تعنيه لهم هذه الرابطة؟ وكيف تؤثر على علاقاتهم الاجتماعية؟

للتعمق في فهم علاقات قرابة أخرى: يساعد توثيق قرابة الرضاعة في إكمال الخريطة الاجتماعية للعلاقات في المجتمع المسلم. إذ قد تقود المعرفة التفصيلية لنوع من العلاقات بشكل غير متوقع إلى معرفة أعمق لعلاقة أخرى. ولقد دُكرت بهذا حديثاً في تركيا حينما كنت أتحدث عن البحث الحالي. إذ أخبرني رجل يبلغ من العمر ثلاثين عاماً أن له أختاً بالرضاعة، وهي ابنة خالته. وكما هو الحال في المجتمعات الإسلامية الأخرى، فإن أبناء العم أو الخال هم المفضلون للزواج. وسألته ما إذا كان يعرف أنه لن يتمكن من الزواج من ابنة خاله هذه فأجابني بأنه يعرف ذلك، لكنه أوضح أن العديد من الناس يعتقدون أن الزواج من أبناء الخال يعد شيئاً ضاراً وإن كان الزواج من ابنة العم ليس كذلك - إذ هنّ من أقارب اللحمة. وأوضح أنه في الماضي فإنّ الناس قد لاحظوا النتائج الممكنة على الأطفال حينما يتزوج أبناء الخال رغم أنهم لم يكونوا يعرفون ما نعرفه اليوم عن الوراثة. وبالنسبة له يظهر أنه من الممكن أننا بالفعل أكثر قرابةً والتحاقاً بالأم وأسرته من التحامنا بالأب وأهله، وربما كان ذلك كذلك بسبب حليتها، وأدى هذا إلى أهمية أخبار المرضعة: فالمرضعة المفضلة في العادة هي الخالة (أخت الأم). بعدها انتبه كلانا إلى أن هذا الاختيار قد يكون مقصوداً؛ لأنه كما هو غير مرغوب أن يتزوج ابنة الخال، وإن كان مسموحاً به في الإسلام، فإنّ الخالة استُخدمت مرضعةً لتجعل مثل هذا الزواج مستحيلاً. وستوضح لنا أبحاث إضافية في هذه المؤسسة ومعلومات من إخباريين آخرين ما إذا كان هذا هو الحال في تركيا أم لا.

للتفرقة بين قرابة الرضاعة وقرابة التربية: مشكلة الربيب - كما ذكرت في المقدمة، وكما هو ظاهر من أمثلة عديدة ذكرتها في القسم الثاني، فإن قرابة الرضاعة غالباً ما يشار إليها بالريبب. ودائماً ما يستخدم وبشكل منتظم في ترجمة المصادر الفقهية العربية باستخدام مصطلح «Foster» بدلاً من الرضاعة

«Milk». والمصطلح الإنجليزي «Foster» مع ذلك غامض، فكلمة «Foster» أصلها من كلمة انجليزية قديمة وهي الآن موجودة فقط في معناها الأصلي «طعام» مضافة إلى كلمات مثل طفل والد وأم وأب.. الخ. وبهذا المعنى تعني العلاقة الخاصة التي ليست بالنسب وإنما عن طريق الرضاعة (بالثدي) أو التربية (Soed 1973: 796). ويطرح هذا الغموض مشاكل آنية حينما تقارن مؤسسات الريبب والرضاعة في الثقافات المختلفة: وحتى نقوم بمقارنات أكاديمية صحيحة يجب علينا بكل تأكيد أن نقارن علاقات متشابهة. ويوضح بحثي عن قرابة الرضاعة أن الوضع مختلف.

وقرابة الريبب كما تمارس اليوم في إنجلترا لا تشمل الرضاعة على الإطلاق وإنما تشير إلى معنى آخر للـ «Foster»، التربية أو تنشئة طفل ليس بطفلك. وحتى حينما تستخدم مرضعة، فإنهن عادة يُعَفَّين حينما يصل الطفل إلى الفطام، ثم إنَّ عملية الرضاعة لم تدخل المرضعة أو الطفل في أي قرابة. وفي موسوعة شاميرز (1950) تحت مادة «Fosterage» قرابة التربية، نجد أن هناك عادة إيرلندية يمكن بمقتضاها لأطفال من أسر حرة ونبيلة أن يُعهد بهم في مرحلة مبكرة من أعمارهم لأسر أخرى ليقوموا بتربيتهم. وعلاقة التربية في مثل هذه الحالات اعتبرت أقوى من علاقة الدم. وحينما نقلب المصادر الإيرلندية (ALI 1869، المجلد الثاني؛ جويس 1903؛ أوكير 1873) نجد معلومات تفصيلية حول ظهور هذه العادة: ويبدو أنه ليس بالضروري أن تكون قد شملت الرضاعة إذ كان الطفل يذهب إلى بيت التربية (الريبب) وعمره عام أو أكثر ويبقى هناك حتى يصل إلى الرابعة عشرة بالنسبة للبنات والسابعة عشرة بالنسبة للأولاد. وكانت أسرة الطفل تدفع أجرة في شكل ماشية لأسرة المربية وفي المقابل تقوم المربية برعاية وتعليم الطفل مهارات تناسب مقامها وما سيكون/ ستكون عليه اجتماعياً في المستقبل. وكانت توضع بعض القواعد للتعويض من قبل المربية لأسرة الطفل في حالة وقوع جروح له. وحينما يكبر الريبب فإنه يصبح مسؤولاً عن مساعدة مربيه إن كانا كبار سن أو فقراء؛ وينطبق الشيء نفسه في حالة قرابة التربية «Fosterage» «الأدبية» حينما كان الطفل يرسل في تعليمه الأكاديمي إلى مربٍّ - وغالباً ما يكون قسيساً - في سن متأخرة (ALI 1869، المجلد الثاني XLIII-XIVI: 147 - 193: 349).

ومن الواضح أن حالة التربية الإيرلندية تختلف عن قرابة الرضاعة في الإسلام: ففي الحالة الإيرلندية ما يكون القرابة هو التربية والتعليم؛ بينما إرضاع الطفل فقط في حالة الإسلام⁽¹⁾. وهي كرابطة قرابة كانت تخلق مشاكل للحكم الإنجليزي وإيرلنده: فحكومات الـ Tudor التي دائماً ما ضبطت الإيرلنديين وفصلهم، شعرت بأن عادة زواج المستوطنين الإنجليز من إيرلنده، وتبنيهم عادات إيرلندية مثل قرابة التربية، كانت تسهم في زيادة مشاكل الإنجليز هناك (موسوعة الأديان والأخلاق 1913، المجلد الرابع: 108). وسواءً أكانت القرابة بالتربية أم لا في إيرلنده في الماضي، مع عادات مشابهة تمارس في إنجلترا الأنجلو - سكسونية (تروب 1840: المعجم) لا يبدو أنها كانت تشكل مانعاً قانونياً معترفاً به للزواج حسب المصادر التي رجعت لها. ومع ذلك فإن الحالات الإيرلندية والإنجلو سكسونية ستظهر كما لو أنها السابقة لنظام المدارس الداخلية البريطانية والتي، تستحق، في حد ذاتها، الاهتمام التاريخي.

وفي البلاد الاسكندنافية في الماضي فإن إرضاع وتربية أطفال غير أطفال الشخص شائعة ومنظمة قانونياً - والوالد بالتربية كان يلعب دوراً أهم من دور المربية إذ يذهب جزء من ثروته لربييه. وكانت الأسر الضعيفة تكسب حماية عن طريقه تربية أطفال أقوىاء. وكان الربيب عادةً من مكانة أدنى. وأحياناً كان عرض تربية طفل عرضاً لعلاقة الصداقة (موسوعة الأديان والأخلاق 1913، المجلد الرابع: 104) وهنا نجد حالة قرابة معترف بها قانونياً تقوم أساساً على تربية طفل، وهكذا فإن الطفل يمكن أن يرث من مربيه، على عكس الحال في قرابة الرضاعة في الإسلام، وفي نفس الوقت فإن إرضاع الطفل في حد ذاته، ما كان يبدو أن له أهمية.

(1) رغم أن معني التدور (Tudor) يرون أنه من «القيبح» أن يكون حليب الأم ينتج في إيرلنده نفس الحنان الذي تقدمه الأبوة في وطنهم (أمين 1893: 242). ولم أجد أي ذكر في المصادر التي رجعت لها لحقيقة أن الرضاعة هي التي تسببت في القرابة أو أنها أوجدت موانع للزواج.

ولقد وثقت إيستر عودي (1982) عادة القرابة بالتربية في غرب أفريقيا، حيث تمارس عن طريق مربين من الأقارب ومن غير الأقارب. وينظر إليها كطريقة لتحسين شخصية الربيب وتقديم تدريب جيد لحياته عند الكبر. وحينما يوضع الأطفال عند غير أقاربهم، فإنهم غالباً ما يكون لغير إعطائهم الفرصة لكسب مهارات وحماية لا يمكن أن يقدمها الوالدان. ورغم أن بعض المجتمعات التي تذكرها مجتمعات مسلمة إلا أن قرابة الرضاعة لم تذكر. ولا يظهر أن قرابة التربية لا تبدع رابطة قرابة تؤدي إلى منع الزواج. وفي أحد الأمثلة أرسل طفل من الهوسا إلى صديق والده في إبيادان وقد تزوج الولد في النهاية من ابنته (غودي 1082: 22) وكذلك يصف ولف هوانج (1980: 113 - 6) مؤسسة السمباوا في تايوان حيث ترسل بنت عمرها سنتان أو ثلاث إلى أسرة مربية لها كل مسؤوليات الوالدين نحوها منذ ذلك العمر. وهذه الطفلة سيكون حظها أن تصبح عروس المستقبل لأحد أبنائهم.

لكن في الإسلام غالباً ما تكون الأسرة التي لا ترغب أسرة الطفل الزواج منها هي التي تختار لأغراض قرابة الرضاعة. وينطبق الشيء نفسه في الحالة الجورجية التي أتينا على ذكرها. فمسيحيو جورجيا لا يريدون لأطفالهم أن يتزوجوا من أسر مسلمة؛ ولا يريد المسلمون أن يتزوج أطفالهم من مسيحيات رغم أن ذلك ممكن قانونياً. ومن ثم فإن قيام علاقة قرابة الرضاعة يحول دون وقوع ذلك، بينما في الوقت نفسه تنشأ علاقة لا يمكن قطعها مع شريك تجاري في منطقة عدوانية محتملة.

قرابة الرضاعة: أهميتها العملية في العالم الحديث:

إن للمعرفة بقواعد القرابة بالرضاعة الإسلامية، رغم ما يظهر من انقراض للعادة، قيمة عملية في العالم الحديث حيث بنوك الحليب شائعة الاستخدام للأطفال الذين يلدون غير كاملي النمو أو قبل أوانهم. فمثلاً رفضت أسرة مسلمة في أكسفورد بشدة أن تسمح لطفلتها المولودة مبكرة قبل أوانها أن ترضع من أمهات «مختلطات» من بنك الحليب، ولم يتمكن العاملون آنذاك في المستشفى من تفسير هذا الرفض. لكن حينما سمعت إحدى الدايات

العوامل في المستشفى عن قرابة الرضاعة، فهمت السبب المحتمل: وهو أن الوالدين لم يرغباً أن يصبح طفلهما مرتبطاً بالرضاعة عن طريق حليب نساء لا يعرفونهم. وفي الإسلام السني، على عكس الشيعي لا يحتاج الطفل أن يرضع مباشرة من الثدي لقيام علاقة الرضاعة. ولسنوات عديدة كان هناك اهتمام بالطريقة التي يروج بها أصحاب المصانع الغربية للحليب المجفف في العالم الثالث والتي لها نتائج مدمرة على الأطفال. وإذا ما أردنا أن نشجع على الرضاعة الطبيعية، في مقابل الحليب الصناعي، فإنه ربما كان من المفيد أن تكون لدينا معرفة عن قرابة الرضاعة في المجتمعات التي نعمل فيها.

وإذا ما نظرنا إلى إيران، على وجه الخصوص، فإننا نتساءل عما إذا كانت هناك عودة لمؤسسة الرضاعة في الحاضر، فإيران لأول مرة في تاريخها تحكمها حكومة إسلامية. وهذه الحكومة لا تشجع العادات والمنتجات التي يرى أنها ذات أصول غربية. فهل سيؤدي ذلك إلى زيادة أعداد النساء اللواتي يرضعن رضاعة طبيعية ومن ثم احتمال ظهور المربيات مرة أخرى بدلاً من الحليب المجفف في حالة عجز الأمهات عن الإرضاع رضاعةً طبيعية؟ وهل حقيقة أن السلوك الإسلامي بين الجنسين إجبارية، على الأقل علناً، ولأن القطاع الأكثر تقليديةً وتديناً من المجتمع منفصل في الحياتين العامة والخاصة، يؤدي ذلك إلى إعادة ظهور قرابة الرضاعة للالتفاف على أحكام حول الحجاب وعدم الاختلاط الصارم بين الجنسين داخل البيت؟ وبعبارة أخرى هل ستكتسب قرابة الرضاعة أهميةً في المجتمع الإيراني من جديد وهو أمرٌ لم تكن له أهمية في ذاكرة من ساعدوني في بحثي؟⁽¹⁾.

(1) في بحث أنثوغرافي حول قرابة الرضاعة محصور بالمعلومات التي تمكنت من الحصول عليها من إيرانيين في المنفى، يعيشون في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية؛ وذلك بسبب الثورة الإسلامية التي قامت في إيران عام 1979 والتي أصبح بسببها القيام بدراسة ميدانية صعباً. وسيكون من المفيد الحصول على بيانات ميدانية من إيران نفسها.